الفصل السابع
٧ - الوفاء والخلق الإسلامى العظيم

● ويبقى للأستاذ الرائد الشيخ محسن أحمد باروم وفاؤه النادر لأساتذته ومعرفته لأقدار الرجال، وليس بمستغرب ذياك الأدب العالى على أديبنا، إذ لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه، ولقد وقفت مليًّا أمام هذا الوفاء العبقرى لمعلميه لا سيما معلمو المراحل الدراسية المبكرة فى مكة المكرمة ثم معلمو كلية اللغة بالجامع الأزهر فى القاهرة ثم رؤساؤه فى التوجيه التربوى وزملاؤه الموجهون خلال رحلته الوظيفية فى التوجيه التربوي ثم فى جنيف مع الداعية الإسلامى الحكيم الدكتور زكى على.

● لقد كان أديبنا وفيًّا لرجالات الفكر والأدب والدعوة والمربين الذين التقاهم عَبْرَ رحلته الوظيفية، كما تعكسه فصول (رحلته مع الزمن وذكرياته وشجونه التربوية)، وكان أوفى ما يكون مع معلميه فى مراحل التعليم الأولى فى مدرسة الفلاح بمكة المكرمة حتى إنه يستحضر ذكرهم بكل الإجلال والامتنان والحب والاعتزاز، جاعلاً عنوان الفصل الثالث من كتابه (المجلد): «أولئك ... أساتذتى ... فجئنى بمثلهم» مفتخراً على طريقة الفرزدق فى قوله:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

- وعند حديثه عمن أعجب بهم وتأثر بأسلوبهم فى التدريس يخص معلمًا شابًا من إندونيسا تعلم وتخرج فى مدرسة الفلاح بمكة وعمل بها واسمه الأستاذ أنور مسدد قاروت، الذى صار له شأن كبير فى العمل السياسى والدعوى الإصلاحى فى أندونيسا فيما بعد، ولقد لفتنى فى إعجاب الفتى بمعلمه الشاب أسلوب المعلم فى تدريسه وحسن معاملته لتلاميذه وإخلاصه فى أداء رسالته، وهى أمور عندما تتوفر فى المعلم تجذب إليه عقول وقلوب طلابه، فيصيرون

كالفراشات المحلقة فى أرجاء الروض النَّدى، تنجذب لأزهاره ونواره وثماره، ولقد عايشت تلكم الحال وأسعدتنى أيما سعادة خلال عملي فى الحقل التربويّ.

– يقول فتانا المكى عن أستاذه الأندونيسى: «وكان ذلك المدرس موهوبا فى أساليب تدريسه محبوباً لدى تلاميذه، وكانت عبقريته الفنية وموهبته فى فن التدريس تتجلى فى هذه المواد الثلاث (الرسم والهندسة واللغة الإنكليزية) التى كان يتقنها حق الإتقان، وكنا نعد الأيام التى يفيض فيها من علمه وخبرته الفنية فى تدريس هذه المواد ما يملأ نفوسنا حبًا وحماسًا وشوقًا لتلك الدروس الثلاثة» (١).

● أما عن أستاذيه الجليلين: السيد إبراهيم سليمان نُورى وزميله السيد إسحاق عزوز فيخصهما بكثير من حديث النداوة والوفاء، وإن كان قد ذكر غيرهما بالتجلة والاحترام بَيْدَ أن ذكره لهذين الشيخين الجليلين قد لفتنى واستوقفنى. يقول الشيخ عن أستاذيه: «كان كلاهما من العلماء الربانيين الموهوبين اللذين يُطلق عليهما صفة العلماء الموسوعيين» (٢).

– وفى موضع آخر يقول عنهما إنهما «من نوابغ الرجال الذين أسدوا لوطنهم ومواطنيهم خدمات جليلة فى مختلف مجالات التربية والتعليم وسيُسطر لهم التاريخ الحديث والمعاصر عبقرية التفانى فى خدمة أبناء وطنهم بمداد من ذهب» (٣).

– وكذلك كان حال أديبنا مع شيوخه فى الجامعة الأزهرية بالقاهرة، وفى رحاب كلية اللغة العربية يثنى على أستاذه محمد على النجار الذى يصفه بأنه (بحر لا ساحل له فى علوم العربية).

وصنوه عبد الحميد عنتر، كما يشيد بأستاذه فى الأدب العربى وتاريخه الدكتور عبد الجواد رمضان الذى بهرته طريقة إلقائه للشعر وحُسن تمثله ويصفه

---

(١) فى موكب الزمن – ذكريات وشجون تربوية ص ٢٦.

(٢) السابق ص ١٧.

(٣) السابق ص ٢٨.

بأنه كان « يعتد بنفسه إلى أقصى حدود الاعتداد، وكان يحلو له أن يوجه أسئلته إليَّ قائلاً: يا حجازىَ أجب عليها » (١).

– أجل أيها السيد الحجازى كم كنت وفيًا لمعلميك وكم كنت مُنْصفًا لأقدار الرجال وكيف لا وأنت الذى ترعرعت على مأدبة الإسلام وأخلاقه مشمولاً برعاية الله وبركة البيت الحرام ؟!! ... كيف لا تُنزل الناس منازلهم وتعرف للرجال أقدارهم وأنت نبتة إسلامية تمثَّل فيها خُلق الإسلام العظيم وأدب النبوة الشريف.

● ولقد أورد فى سيرته ورحلته مع الدرس والعمل الوظيفى عشرات الأسماء لإخوانه وزملائه فى حقل الدراسة فى رحاب مدرسة الفلاح بمكة المكرمة وخلال إقامته فى القاهرة لطلب العلم بالجامعة وأثناء العمل فى التوجيه التربوى والإعلامى، وخلال العمل فى الحقل الإدارى فى وزارة المعارف والجامعة، وهم جميعًا من جيل البُناة المؤسسين للنهضة العلمية والتعليمية والاجتماعية المعاصرة، كما رأيناه يرسم بريشة رسام صورة بديعة وبليغة للصفات النفسية والجسمية لرفاق الدرس والسفر وزملاء التوجيه مستفيداً بمنهاج علم النفس وخبرة المربى وسعة العلم والخبرة بالطبيعة البشرية (ومن عَرَف كثيراً غفر كثيراً) !!.

– ولكنا نقف – فى إعجاب وإجلال – أمام تقديره ووفائه لعَلَمين عظيمين اللذين ورد ذكرهما فى ذكريات أديبنا السَّيد وهما العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام والداعية الحكيم الدكتور زكى على ولقد أكبرت حُبَّه وتقديره لها واعتزازه بهما وبأثرهما فى خدمة الدعوة والحضارة الإسلامية، وأولهما الدكتور عبد الوهاب عزام الذى سبق تعرف شيخنا عليه وتتلمذه على يديه فى محافل العلم والأدب بالجامعة المصرية إبّان دَرْسه فى الجامعة والدكتور عبد الوهاب عزام أول سفير لمصر فى باكستان بَعْدَ استقلالها وانفصالها عن الهند، وهو من رواد الأدب

---

(١) السابق ص ٤٦.

العربى الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة وأول من عرّف بالفيلسوف الشاعر الدكتور محمد إقبال الملقب بشاعر الإسلام، وقدم لأدباء العربية فلسفة إقبال ونماذج من شعره بالعربية نظماً ونثراً، فلا جرم أن يحزن أديبنا الشيخ محسن باروم عند وفاته أشد الحزن، وقد وافاه الأجل عام (١٣٧٨ هـ) وكان مديراً لجامعة سعود بالرياض، وتشاء إرادة الله أن يُكلف شيخنا بمصاحبة الجثمان الذى أمر له الملك سعود بطائرة خاصة تقلهُ إلى مصر، ويصحبه فى الرحلة شقيق الفقيد الأستاذ عبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية والمجاهد الإسلامى الكبير وحرم فقيد العرب والمسلمين الدكتور عبد الوهاب عزام – رحمه الله – والذى يقول عنه أديبه الوفى إنه: «أحد رواد الأدب العربى الإسلامى الحديث فى مصر، فقد كان الفقيد مع أنداده طه حسين وأمين الخولى ومصطفى عبد الرازق ومحمد عوض محمد وعبد الوهاب حموده وأحمد أحمد بدوى طليعة والمفكرين العرب فى كلية الآداب بجامعة القاهرة» (١).

– ويمضى فى إنصاف الرجل والثناء عليه فيقول: «ولن أنسى ما حييت المتعة الفكرية ومشاعر الغبطة والسرور التى كنت أحس بها وأنا أتابع محاضرات هذا الأديب الكبير فى مدرجات كلية الآداب وغيرها من منتديات الثقافة والفكر فى القاهرة» (٢).

● وثانى الرجلين العبقريين هو العلامة الطبيب الدكتور زكى على – عافاه الله وشفاه (*) – ويأتى وفاؤه للدكتور زكى على الداعية الإسلامى المقيم فى جنيف بسويسرا منذ أواسط ثلاثينيات القرن العشرين الميلادى والمدافع عن حقوق الأوطان الإسلامية وأمته العربية الغيور على دينه ولغة القرآن، وقد التقاه الشيخ فى جنيف أوائل الستينات الميلادية من القرن العشرين وشكر له خدماته الجليلة للمكتب الثقافى السعودى بجنيف حيث توطدت أواصر الأخوة الإيمانية

(١، ٢) المصدر السابق ص ٩١.

(*) انتقل الدكتور زكى علىّ إلى جوار ربه الكريم فى جنيف فى يوم السبت [١١/١١/١٤١٩ هـ] الموافق [٢٧/٢/١٩٩٩م].

بين الرجلين حتى كانت دعوة شيخنا محسن أحمد باروم لإصدار كتاب للتعريف بجهاد هذا الرجل فى سبيل الإسلام وأمته وقضاياه ولغة القرآن وآدابها على مدى قرابة سبعين عامًا وقد استجاب صاحب هذه السطور للدعوة الكريمة فعكف على إخراج كتابه عن الدكتور زكى على (من أعلام الدعاة فى أوربا)، وفيه عرض لجوانب نشاط الرجل وعطائه : عالما طبيبًا وداعيًا نجيبًا وكاتبًا أديبًا، وقد شاركَ الشيخ فى تحرير الكتاب بتواضع العالم الكبير، وقام على طبعه ونشره فى داره الإعلامية بجدة.

– وأدعو الله تعالى أن يجزى شيخنا خير الجزاء، وأن يتقبل جهاده فى سبيل العلم والتعليم والإعلام فى ميزان حسناته، وأن يبارك للأمة العربية والإسلامية فى عطائه المتواصل فى خدمة الإسلام ورسالة العلم، ولا شك أن تكريمه من قبل وزارة المعارف السعودية كأحد رواد التعليم ورموز النهضة وبُناتها مع سَبَعة آخرين من رجال التربية تكريمٌ أصاب أهله ولفتة كريمة من أولى الأمر لدفع الأجيال اللاحقة لمضاعفة الجهد ومواجهة التحديات لتحقيق المزيد من الطموحات على طريق نهضة الوطن وعزته ومنعته؛ لتقوى به الأمة على طريق التوحيد الخالص والشريعة السمحاء، والتضامن الإسلامى الفعال على طريق الوحدة الإسلامية والله لا يضيع أجر المحسنين، والحمد لله رب العالمين.

* * *